

السفارات في المغرب الأوسط خلال العهد الحمادي

(405-547 هـ/1014-1152 م)

Embassies in Central Maghreb during The Hammadi Era (405- 547 Ah/1014 -1152 Ad)

نورالدين مسعودي

جامعة عمارثليجي الأغواط (الجزائر) no.messaoudi@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال: 2025/05/19 تاريخ القبول: 2025/06/10 تاريخ النشر: 2025/06/30

الملخص:

يحاول هذا المقال التطرق إلى الجانب الدبلوماسي في المغرب الأوسط خلال العهد الحمادي، وذلك بتسليط الضوء على علاقات إمارة بني حماد مع جيرانها من خلال تبادل السفارات بمختلف أنواعها، ومدى تحكمها في استخدام هذا النوع من الدبلوماسية لخدمة مصالحها. سنقف في هذه الدراسة على ذكر مختلف أنواع السفارات الحمادية التي تبادلتها مع جيرانها سواء كانت سياسية أو دينية، أو لعقد علاقات تحالف وتعاون، أو من أجل المصاهرة وتبادل الهدايا والتعازي. الكلمات المفتاحية: بلاد المغرب، بني حماد، سفارات.

Abstract:

This article attempts to address the diplomatic aspect in the Central Maghreb during the Hammadi Era, by shedding light on the relations of the Emirate of Bani Hammad with its neighbors through the exchange of embassies of various kinds, and the extent of its control over the use of this type of diplomacy to serve its interests. In this study, we will mention the various types of Hammadid embassies that they exchanged with their neighbors, whether they were political, religious, to establish alliance and cooperation relations, for intermarriage and the exchange of gifts, or for condolence.

Keyword: Maghreb countries, Bani Hammad, Embassies.

مقدمة:

ارتبط المغرب الأوسط بصلاتٍ وثيقة مع جيرانه؛ مستفيداً من عدّة عوامل مساعدة، يأتي في مقدمتها الموقع الهام الذي أهل حواضره لتكون حلقة وصل بين مختلف أصقاع المغرب والمشرق من جهة، وبين السودان والأندلس، ثمّ الشمال الأوروبي من جهة أخرى، وتنوعت هذه العلاقات بين السياسية والاقتصادية والثقافية، وكانت السفارات من أفضل الطرق للتواصل بين حواضر المغرب الأوسط وجيرانه، وتنوعت أهداف السفارات بين مسائل سياسية ودعوية وعلمية، أو لعقد علاقات تحالف وتعاون، أو من أجل المصاهرة وتبادل الهدايا أو للتعزيزية وتبادل التهاني، وتعتبر السفارات أخطر من الحروب، كونها ترافقها لإنهاءها وحصد نتائجها، لذلك كان يتعين على الحكام اختيار سفراء تتوفر فيهم المؤهلات اللازمة حتى يكونوا أقدر على التأثير وأبلغ في التعبير لإيصال مضمون السفارة. وكغيرها من حواضر بلاد المغرب تبادلت إمارة بني حماد مع جيرانها السفارات بمختلف أنواعها، فهل استطاع الحماديون تأسيس دبلوماسية قوية في المغرب الأوسط؟. وإلى أي مدى تمكنت إمارة بني حماد من استخدام السفارات مع جيرانها لخدمة مصالحها؟.

1 السفارات بين الحماديين ودول المغرب الإسلامي:

1.1 السفارات بين الحماديين والزيّريين:

تميزت العلاقة بين بني زيري في القيروان وبني عمومهم الحماديين بتوتر كبير، منذ أن أقدم حماد بن بلكين (405-419هـ/1014-1029م)¹، على بناء القلعة والاستقلال بإمارته عن

الزيريين، إلا أن ذلك لم يمنع الطرفين من التقارب من حين إلى آخر على حسب التحديات التي واجهت الإماراتين، والتي فرضت عليهما السعي إلى تحسين العلاقات والعمل جنباً إلى جنب، وتمثلت تلك العلاقات في المصاهرات وتبادل السفارات.

أ- سفارة القائد بن حماد²:

جاءت هذه السفارة على إثر المواجهة العنيفة التي دارت بين حماد بن بلكين (405-419هـ/1029-1014م) والمعز بن باديس (406-454هـ/1016-1062م)³ سنة 408هـ/1017م، والتي انتهت بهزيمة قاسية لحماد وإصابته بجراح⁴، مما اضطرَّ حماد إلى البحث عن مخرج لهذا الوضع الحرج، فقام بدعوة المعز للصلح، لكنَّ المعز اشترط عليه إرسال ابنه القائد (419-446هـ/1028-1054م) كي يتأكد من صدقه، وما كان من حماد إلا أن أرسل ابنه القائد سفيراً في شهر شعبان من سنة 408هـ/1018م، فأكرم المعز وفادته وتم الاتفاق وحصل حماد مباشرة عقب الصلح على منشور من المعز، بولايته على المسيلة وطبنة، ومرسى الدجاج وزواوة، ومقرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة، وأعطى البنود والطبول⁵، واستقرت الأمور بين الطرفين، وكُلِّل هذا الصلح بالمصاهرة، حيث زوّج المعز أخته بعبد الله بن حماد، ويتبين من خلال ما أسفر عنه هذا الصلح، أنَّ المعز كان حريصاً على إخماد جبهة المغرب الأوسط، وذلك بإخضاع حماد لسلطته، وتكليفه بالوقوف في وجه زناتة المشاغبة⁶. وتذكر المصادر أنه من نتائج صلح 408هـ/1018م، التقارب الكبير بين الأمير الحمادي القائد، والأمير الزيري المعز بن باديس، ففي معلومة مختصرة يذكر النويري أن القائد بقي يتردد على المعز، ويبدو أن القائد رغم ذلك كان يخلق الأسباب للتخلص من تبعات ذلك الصلح "يضمّر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه"⁷.

ب- سفارة رجالات الأثيج إلى الناصر بن علناس:

هذه السفارة هي من أخطر السفارات التي وفدت على أمراء بني حماد، لأنها كانت وبالا عليهم لتسيبها في معركة سببية سنة 457هـ/1065م، وكان سببها أنَّ رجالاً من قبيلة الأثيج وفدوا على الناصر بن علناس يطلبون منه الدعم على بني رياح، فأجابهم ونهض لنصرتهم في جيش ضم إلى جانب قواته النظامية المتكونة من العبيد، وصنهاجة، كل من زناتة، وقبائل عُدي والأثيج، وكانت المواجهة قرب قرية سببية القريبة من الأربس، وهناك دارت الدائرة على الناصر وحلفائه⁸.

ج- سفارة أبي بكر بن أبي الفتوح:

رغم أن هذه السفارة لم يقيم بها وزير بني حماد أبو بكر بن أبي الفتوح؛ إلا أنه هو المدبر والمنفذ لها، فعندما علم الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م)⁹ برغبة تميم في الصلح بعد موقعة سببية التي عرفت هزيمة قاسية للحماديين أمام الزيريين وحلفاءهم، أسند الناصر إلى وزيره أبي بكر بن أبي الفتوح مهمة الصلح بينه وبين أمير الزيريين تميم (454-501هـ/1062-1108م)¹⁰، وتذكر المصادر أن هذا الوزير كان يميل إلى تميم، وكان ينصح الناصر بأن يتحاشى محاربة تميم، ويشجعه على الاتحاد معه ضد قبائل بني هلال، كي تسهل عملية إخراجهم من بلاد المغرب، وعندما تلقى ابن أبي الفتوح أوامر الناصر للشروع في عملية الصلح، أوفد الوزير رسولا إلى المهديّة، لم تذكر لنا المصادر اسمه ولا سنة خروجه إلى المهديّة، والمؤكد أن السفارة كانت بعد معركة سببية 457هـ/1065م، وقبل سنة 461هـ/1068م تاريخ بناء بجاية، وكانت مهمة السفير الحمادي هي الاعتذار وعرض الصلح على تميم¹¹.

يبدو أن مهمة السفير الحمادي لم تكن صعبة، فعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققه الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس على أمير الحماديين الناصر بن علناس في معركة سببية سنة 457هـ/1065م، إلا أن تميم أصابه حزن شديد وخوفا من استفحال خطر الهلاليين على إمارته، وإدراكا منه بأن صراعه مع بني عمومته الحماديين سيكون في فائدة الهلاليين الذين ما فتئت قوّتهم تتعاظم على حساب الزيريين والحماديين، فأخذ تميم بنصيحة مستشاريه وقبل عرض الصلح الذي نقله إليه السفير الحمادي على لسان الناصر بن علناس¹².

د- سفارة محمد بن البعبع:

حينما اقتنع تميم بن المعز (454-501هـ/1062-1108م) بعرض الصلح الذي عرضه عليه الناصر بن علناس بواسطة السفير الحمادي، استدعى تميم رجلا يدعى محمد بن البعبع وأعطاه مالا ودوابا وعبيد وأرسله إلى الناصر، فسار المبعوث الزيري بمعية السفير الحمادي إلى أن وصلا إلى بجاية التي كانت آنذاك معقلا لبعض الفلاحين من قبيلة بجاية الصنهاجية، وهناك اقترح ابن البعبع على الناصر الانتقال إلى بجاية بدلا من القلعة التي أصبحت مستباحة من طرف الهلاليين، وشرح له مزاي موضع بجاية كونها مكان ساحلي قريب من إفريقية وخصوصا المهديّة يطمح الناصر للاستيلاء عليها، إلا أن تميم اكتشف خيانة

سقيره فقام بقتله بمجرد رجوعه من القلعة، وقد تسببت هذه الحادثة أيضا في هلاك الوزير أبو بكر بن أبي الفتوح الذي قتله الناصر حين اكتشف ولاءه للأمير بني زيري تميم بن المعز، وكان لحروب الجوسسة تلك دور كبير توتر العلاقات بين الطرفين من جديد، واستمر الوضع إلى سنة 470هـ/1078م، حيث عقد الطرفان صلحا أنهى ذلك التوتر¹³.

هـ- تبادل الهدايا مع حاكم صفاقس:

الانهيار الذي لحق بإمارة الزييين جرّاء اجتياح قبائل بني هلال لإفريقية، والثورات التي اندلعت هنا وهناك ضد السلطة المركزية، واستقلال عمّال المناطق بعمّالهم، تسبب في ضعف الدولة الزييرية وانحصار ملكها، ليقصر على المهديّة وبعض المدن الساحلية، فأضحت إفريقية مجرّاة إلى إمارات صغيرة، تشبه دول الطوائف ببلاد الأندلس¹⁴، حيث يصف ابن خلدون الحالة التي وصل إليها الزييريون بقوله: «كثر الثوار عليهم والمنازعون من أهل دولتهم»، كل ذلك جعل الأمير الحمادي الناصر بن علناس يستغل الوضع للتشجيع المتمردين على سلطة بني زيري، ومنهم أمير صفاقس حمو بن مليل البرغواطي بايع الناصر وبعث له الهدايا والرسائل وبذلك أصبحت صفاقس تابعة لبني حماد¹⁵.

و- السفارات من أجل المصاهرة وتبادل التهاني والتعازي:

تمتينا للروابط التي أصبحت قائمة بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين، عقب عقد صلح سنة 408هـ/1017م، قام الأمير المعز بتزويج أخته أم العلو لعبد الله بن حمّاد سنة 415هـ/1024م، وبالغ المعز في الإنفاق على مراسيم الزفاف، فقد حُمل مهرها في عشرة أحمال، وجملته مائة ألف دينار، ومضت سفارة هذا الموكب المهيب يتقدمه الأمير المعز ووجوه من رجال الدولة¹⁶. وفي ذات السياق وتمتينا للروابط التي أصبحت قائمة بين الدولتين عقب الصلح الذي تم بين الطرفين سنة 470هـ/1078م، قام الأمير الزيري تميم بتزويج ابنته بلارة¹⁷ للناصر بن علناس، وسيّرها في سفارة مهيبة من المهديّة، وجّهزها بما لا وصف له بالجهاز والحلي، ومن جهته لم يتوان الناصر في بذل المال بسخاء خلال هذه المناسبة¹⁸. وفي ذات الإطار وتدعيما للاستقرار والهدوء الذي عرفته العلاقات الزييرية الحمادية في عهد الأمير يحيى بن تميم (501-509هـ/1108-1116م) تم سنة 509هـ/1115م، زواج العزيز بن المنصور الحمادي (498-515هـ/1105-1121م)، من بدر الدجى بنت يحيى بن تميم الزيري¹⁹.

استقبل الحماديون سفارات بمناسبات تتعلق بالتعازي عند وفاة حكامهم، والتهنئة عند تنصيبهم، حيث يذكر ابن الأثير أن المنصور بن الناصر وصله سنة 481هـ/ 1088م، كتب الملوك ورسلمهم بالتعزية لوفاة أبيه والتهنئة بالملك، وذكر ابن الأثير من هؤلاء الملوك؛ الأمير الزيري تميم بن المعز، وهو جده لأمه بلارة بنت تميم²⁰.

2.1 السفارات بين الحماديين والقبائل والأعيان:

أ- سفارة رجالات الأثيخ إلى الناصر بن علناس:

هذه السفارة هي من أخطر السفارات التي وفدت على أمراء بني حماد، لأنها كانت وبالا عليهم لتسببها في معركة سببية سنة 457هـ/ 1065م، وكان سببها أنّ رجالا من قبيلة الأثيخ وفدوا على الناصر بن علناس يطلبون منه الدعم على بني رياح، فأجابهم الناصر ونهض لنصرتهم، خصوصا وأنه كان يسعى لاستمالة القبائل الهلالية اقتداء ببني عمومته الزيريين، ولتوظيفهم في مشاريعه التوسعية على حساب بني عمومته الزيريين وفي حروبه مع زناتة، ثم مع دولة المرابطين. فجهّز الناصر جيشا ضم إلى جانب قواته النظامية المتكونة من العبيد، وصنهاجة، كل من زناتة، وقبائل عُدي والأثيخ، وكانت المواجهة قرب قرية سببية القريبة من الأربس، وهناك دارت الدائرة على الناصر وحلفائه²¹.

ب- سفارة الهلاليين إلى يحيى بن العزيز:

كثيرا ما استغل الهلاليون الصراع الحمادي الزيري لخدمة مصالحهم، فعلى إثر الخلاف الذي كان بين الأمير الحمادي يحيى بن العزيز (515-547هـ/ 1121-1152م)²²، والأمير الزيري الحسن بن علي، توجه وفد من عرب بني هلال إلى بجاية، وعرضوا على الأمير يحيى المساعدة للاستيلاء على المهديّة على خلفية²³، ويعود سبب انقلاب عرب بني هلال على الزيريين إلى الصلح الذي أبرمه الأمير الزيري الحسن بن علي مع رجار صاحب صقلية، فلم يُرضِ هذا الصلح المهين أهل المهديّة، وقاموا بمكاتبة الأمير الحمادي يحيى بن العزيز ووعده بتسليم المهديّة، ولإثبات حسن النية تركوا أولادهم كرهائن²⁴. ولم يتردد يحيى في مساعدتهم وأرسل سنة 529هـ/ 1135م، أسطولا بحريا ورافقه جيشا في البر يقوده الفقيه مطرف بن حمدون، وانظم إليه جمع كثير من الهلاليين الذين كانوا ناقلين على أمراء بني زيري، وعندما وصلوا إلى المهديّة فرضوا عليها حصارا بريّا وبحريّا²⁵، وبعد سبعين من الحصار، نشب القتال بين الطرفين إلا أنّ حصانة المهديّة حالت دون اقتحامها والاستيلاء عليها، ويبدو أن الأمير

الزيري كان قد استنجد بملك صقلية رجار الذي أمده بقوة بحرية، وأمام هذه التطورات اضطر الحماديون للانسحاب²⁶. دون تحقيق أي نتائج تذكر، بل على العكس من ذلك كان من نتائج هذه الحملة فتح جبهة صراع جديدة مع النورمان في صقلية، وتعميق حدة النزاع بين الزيريين والحماديين²⁷.

ج- سفارة أهل تونس:

على إثر الانهيار الذي لحق بإمارة بني زيري بفعل هجرة بني هلال، قرر أهل تونس إعلان البيعة للحماديين، فأرسلوا وفداً إلى الناصر بن علناس طالبين منه تعيين وال عليهم، فما كان من الناصر إلا الاستجابة لطلبهم بتعيين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، الذي بدأ ولايته بعقد صلح مع الهلاليين بدفع أتاوة لكفّ عدوانهم، وكان من مشاهير بني خراسان أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق، الذي ضبط تونس وبني أسوارها، وبني قصور بني خراسان، وكان يحب العلماء ويجالسهم²⁸.

د- سفارة أهل قسنطينة:

بعد انحصار ملك بني زيري على مجالات إفريقية، بسبب ضربات القبائل الهلالية، ارتأى أهل قسنطينة اقتداء بأهل القيروان وتونس وصفاقس مبايعة الناصر بن علناس، فوفد يحيى بن واطاس مقدم أهل قسنطينة على الناصر لتقديم شواهد الإخلاص والطاعة، فأحسن وفادتهم وأجزل لهم العطاء، وعيّن عليهم رجلاً من صنهاجة يدعى يوسف بن خلوف²⁹.

هـ- سفارات المصاهرة بين الحماديين وقبيلة زناتة:

غلب الطابع العدائي بين دولة بني حماد وقبيلة زناتة، ولم يأل أمراء بني حماد جهداً في مقاومة زناتة المتمردة، إلا أن العلاقات الحمادية الزناتية عرفت من حين إلى آخر بعض الهدوء والتصالح، حيث تذكر المصادر أنّ قبيلة بني ومانو التي كانت تتزعم قبائل زناتة، زوجت إحدى بناتها للناصر بن علناس، وأخرى لابنه المنصور. وفي ذات المنوال سار العزيز بن المنصور (498-515هـ/1105-1121م)، حيث اقتدى بوالده وجدّه الناصر، عندما صالح قبيلة زناتة وتزوج ابنة الزعيم الزناتي ماخوخ³⁰.

3.1 السفارات بين الحماديين والمرابطيين:

أ- السفارات من أجل التهنئة والتعازي:

رغم العلاقات المتوترة بين إمارة بني حماد ودولة المرابطين، إلا أن ذلك لم يمنع الطرفين من التواصل، فبعد وفاة الناصر بن علناس ارتقى ابنه المنصور بن الناصر سنة 481هـ/1088م، فتلقى كتاباً من يوسف بن تاشفين بالتعزية بأبيه والتهنئة بالملك³¹.

ب- سفارة حواء زوجة تاشفين بن يغمر:

جاءت هذه السفارة على إثر معركة تلمسان سنة 496هـ/1103م، بين الحماديين والمرابطين، هذه المعركة التي وقعت على إثر التحرشات المستمرة للجانب المرابطي على ممتلكات الحماديين، حيث استولى الجيش على تلمسان واتخذوها قاعدة لشن الهجمات على المدن التابعة للحماديين كوهراة والشلف وتنس، ووصل بهم الأمر إلى حصار الجزائر سنة 475هـ/1083م³²، وبعد حصار تلمسان تمكن الجيش الحمادي من إلحاق الهزيمة بجيش المرابطين، وعندما دخلت قوات المنصور بن الناصر (481-498هـ/1088-1105م)³³ إلى تلمسان خرجت إليهم زوجة قائد جيش المرابطين تاشفين بن يغمر، وتقدمت للمنصور طالبة منه الرحمة، متوسلة له بوشائج صنهاجة كي يطلق الأسرى، فأكبر قصدها وأكرم موصلها، وأفرج عن كل الأسرى، وأخرج المنصور جنوده من تلمسان وعاد إلى القلعة³⁴.

ج- رسالة يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر:

عندما غزا قائد الجيش المرابطي مزدي بن تيلكان، تلمسان سنة 472هـ/1080م، تمكن من الاستيلاء عليها، ونصّب عليها يوسف بن تاشفين عاملاً يدعى محمد بن يغمر المسوفي، واتخذوها قاعدة لجندهم وعتادهم بالمنطقة، وشرعوا في الإغارة على المدن التابعة للحماديين³⁵، هذا الأمر أثار حفيظة أمراء بني حماد وكان لا بدّ من مواجهة عسكرية بين الجانبين لإنهاء التحرشات المستمرة على ممتلكات إمارة بني حماد منذ سنة 472هـ/1080م، وما زاد من توتر العلاقات أكثر هو استضافة المنصور لولي عهد ألمرية معز الدولة بن صمادح، وهو أحد أمراء الطوائف الذين خلعهم المرابطون من الحكم، فقرر اللجوء إلى المنصور خشية من بطش المرابطين، فأقطعه المنصور منطقة تدلس التي أقام بها حتى آخر حياته³⁶.

ونتيجة لذلك حشد المنصور بن الناصر (481-498هـ/1088-1105م)، قواته وزحف على تلمسان على رأس عشرين ألف مقاتل في سنة 496هـ/1103م، وتمكن من إلحاق هزيمة قاسية بالجيش المرابطي³⁷، الأمر الذي أغضب كثيراً الأمير يوسف بن تاشفين، فرداً على

رسالة وردت إليه من المنصور الحمادي لم تسعفنا المصادر عن فحواها، كتب ابن تاشفين إلى المنصور مخاطبا إياه بلهجة قاسية، ومعاتبا إياه بسبب اعتماده على قبائل بني هلال التي كان لها دور كبير في حسم المعركة لصالح الجيش الحمادي، ومما جاء في تلك الرسالة: «إلى صاحب قلعة حماد وصل كتابك الذي أنفذته من وادي منى صادرا عن الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك وأجحفت بطارفك وتلادك...». ثم أضاف: «وجدناك تتجنى وتُترَّب على من لم يستوجب التثريب...». ثم يعاتبه على استعانته بعرب بني هلال فيقول: «تستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقرب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا، وتنفق عليهم ما كثره أوائلك إسرافا...»³⁸.

2 السفارات بين الحماديين والعالم الخارجي:

1.2 السفارات بين الحماديين والدولة الفاطمية:

بعدما شاهد القائد بن حماد (419-446هـ/1028-1054م) ما لحق ببني عمومته الزيريين جرّاء زحف قبائل بني هلال على إفريقية، استيقن أنّ الدور سيكون عليه لا محالة، فما كان منه إلا البحث عن وسائل لتجنب المصير الحتمي الذي ينتظره، فأول عمل قام به هو مراجعة طاعة الفاطميين، حيث تذكر المصادر أن القائد تلقى مراسلة من المستنصر الفاطمي الذي لقبه بشرف الدولة، وهو الاسم الذي كان للمعز بن باديس في السابق³⁹، وهي المعلومات التي تؤكد الرسالة التي أرسلها المستنصر الفاطمي إلى صاحب اليمن يذكر فيها أنّ وفدا كان من ضمنه ابن حماد أخ صاحب القلعة، انتقل إلى قابس وهناك التقوا بمكيين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، حيث قدموا فروض الولاء والطاعة، وطلبوا العفو من الخليفة الفاطمي «وخرج إليه ابن بُلَكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حماد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة مستأمنين، وبعفو أمير المؤمنين لأئذين، وعلى بابهِ ترسلا في مثله عن صنهاجة وافدين»⁴⁰.

وعلى خلاف ما ذكره ابن خلدون من دخول القائد في طاعة الفاطميين، يذكر ابن الخطيب رواية مغايرة مفادها أن القائد خلع طاعة الفاطميين اقتداء بابن عمه المعز بن باديس، ودعا لبني العباس إلى أن توفي في ذي القعدة من عام 446هـ⁴¹.

المطلب الثاني: السفارات بين الحماديين والأندلس

لم تكن هناك صلات مباشرة بين الحماديين والأندلسيين لعدة أسباب، يأتي في مقدمتها خضوع الحماديين سياسيا للفاطميين لفترة طويلة، خصوصا إذا أخذنا بالحسبان العلاقة المتوترة بين الفاطميين والدولة الأموية في الأندلس، ودور زناتة الموالية للأمويين في الأندلس في سد طريق الاتصال سياسيا مع الحماديين، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الاتصالات في صورة لجوء بعض الحكام الأندلسيين إلى المغرب الأوسط⁴²، حيث يذكر أكثر من مؤرخ أن ولي عهد المرية معز الدولة بن صمادح، وأهله وبعض رعيته، لجأوا إلى المنصور بن الناصر، بعدما استولى المرابطون على إمارته في الأندلس، فاستضافه المنصور وأقطع له منطقة تدلس التي أقام بها طيلة حياته⁴³.

2.2 السفارات بين الحماديين والممالك المسيحية:

كان لباباوات روما علاقات حسنة مع الحماديين وخاصة في عهد الناصر بن علناس، وتعود هذه العلاقات إلى بداية تأسيس دولة بني حماد؛ فالحماديين عند بناء القلعة تقبلوا بها الجالية المسيحية بصدور رحبة، وأحسنوا إليهم مدة دولتهم، وضمنوا لهم حرية دينهم، حيث تذكر المصادر أنه في سنة 508هـ/1114م، تم بناء كنيسة مريم العذراء بالقلعة، كما انتخب مسيحيو بونة أسقفا عليهم يدعى سرفاند، فصادق الناصر بن علناس على هذا التعيين، ولما سافر سرفاند إلى روما أرسل معه الناصر هدايا جلييلة ورسالة ودية إلى البابا قرقوار السابع، وأرسل معه جميع الأسرى المسيحيين الذين عثر عليهم في مملكة بني حماد، وتعبيرا عن سرورهم وامتنانهم أرسل رجال الكنيسة الرومانية رسائل شكر وثناء للناصر مع سرفاند حين عودته إلى بونة، هذا الفعل أعجب كثيرا رجال الكنيسة الرومانية، وعند عودة سرفاند إلى بونة أرسلوا معه رسائل شكر وثناء للناصر بن علناس، وأرسل معه البابا أيضا رسالة تعتبر أكبر وأهم رسالة أرسلت من باباوات روما إلى ملوك المغرب، وذلك سنة 469هـ/1076م، ومما جاء فيها: "من جريجوار .. خادم خدام الله.. إلى الناصر ملك موريتانيا ومقاطعة سطيف في إفريقية.. تحيات وبركات رسولية... " كتبتم إلينا تعيين قس، وفقا للشرائع المسيحية وهو هذا القس الخادم (سرفاند) الذي بادرنا بتعيينه، لأن طلبكم كان منصفا". ثم يشكره على إطلاق سراح المسيحيين الذين كانوا أسرى عند الحماديين فيقول: "وفي نفس الوقت أرسلتم إلينا بعض الرسائل، وأطلقتهم سراح المسيحيين الذين كانوا أسرى لديكم، مراعاة للطوباوي البار بيير، أمير المبشرين، وحبنا لنا. ووعدتم بإطلاق سراح كل من

يوجد لديكم ثمانية....". ثم يذكر في رسالته أن نبلاء روما أعجبهم هذا الصنيع، وهم يريدون توثيق العلاقات بين الطرفين، وأنهم يتشرفون بتبادل المراسلات والزيارات بين الدولتين⁴⁴. من العرض السابق يتبين لنا أن الدولة الحمادية نجحت إلى حد بعيد في تأسيس دبلوماسية قوية في المغرب الأوسط، مكّنتها من حماية مصالحها والحفاظ على كيائها في وجه مختلف التحديات التي كانت تواجهها، كما تبين لنا أن أمراء بني حماد أولوا عناية خاصة بالسفارات بمختلف أنواعها، وبواسطتها تمكنوا من الوقوف في وجه التحديات والأخطار التي كانت تهددهم، والنجاح في ربط علاقات متميزة سواء مع جيرانهم في بلاد المغرب أو خلف بحر الروم.

¹ حماد (405-419هـ/1014-1029م): هو حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، كان نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، درس الفقه والجدل في القيروان، وكان شجاعا جوادا، وداهية حصيفا، وأخباره مشهورة، وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إليه، فاتخذ بها القصور العالية، والقصاب المنيع، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد، توفي سنة 419هـ/1029م. انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تح: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2، ص328-329؛ وعبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6، ص229.

² القائد بن حماد (419-446هـ/1028-1054م): ولي الحكم بعد وفاة والده حماد سنة 419هـ/1028م، كان جبارا، شديد الرأي، عظيم القدر، خلع دعوة العبيديين كما فعل ابن عمه المعز بن باديس، إلا أن ابن خلدون يقول أن القائد راجع دعوة العبيديين لما نقم عليه المعز، ولقبوه شرف الدولة، توفي سنة 446هـ/1054م، وخلفه ابنه محسن. انظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص329.

³ المعز بن باديس (406-454هـ/1016-1062م): هو المعز بن باديس بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ولد بالمنصورية في سنة 398هـ، بوع بإمارة إفريقية وما والاها من بلاد المغرب بعد وفاة والده باديس في سنة 406هـ، ولقبه الحاكم العبيدي شرف الدولة، كان ملكا جليلا عالي الهمة، محبا لأهل العلم كثير العطاء، حمل أهل إفريقية على إتباع مذهب الإمام مالك بن أنس ونبد التشيع، توفي في سنة 454هـ. انظر: أبو العباس بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج5، ص233-234.

⁴ أبو الحسن علي بن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبي الفدا عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج8، ص89.

⁵ شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ج24، ص114.

- ⁶- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 90؛ والهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، تر: حمّادي الساحلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج 1، ص 163.
- ⁷- نهاية الأرب: ج 24، ص 114، 122.
- ⁸- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 230.
- ³- الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م): هو الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، وصل إلى الحكم في سنة 454هـ بعد انتقامه من بلكين بن محمد بن حماد، الذي قتل أخته، كان جريئاً على سفك الدماء، شديد الغيرة على النساء، عظم شأن آل حماد في أيامه، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيّد المدائن العظيمة، وهو الذي بنى مدينة بجاية وسماها الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، وغزا المغرب، توفي سنة 481هـ. انظر: ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 229، 232؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 333.
- ¹⁰- تميم (454-501هـ/1062-1108م): هو أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد، ولد بالمنصورية سنة 422هـ، كان حسن السيرة محمود الآثار، مُجِبّاً للعلماء، وهو أحد شعراء أبناء الملوك، ولآه أبوه المهدية سنة 445هـ، ولم يزل بها إلى أن توفي والده سنة 454هـ، فاستبدّ بالملك إلى أن توفي سنة 501هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 304-305؛ وأبو عبد الله بن الأبار: الحُلّة السرياء، تح: حسين مؤنس، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج 2، ص 21-22؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 325.
- ¹¹- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 373؛ والنويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 124.
- ¹²- ابن الأثير: نفسه، ج 8، ص 373، 374، 375.
- ¹³- أبو العباس ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ط 3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج 1، ص 300؛ وابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 374-375؛ والنويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 124، 125، 126؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 315 وما بعدها.
- ¹⁴- jacques thiry: Le sahara Libyen dans L'afrique du nord medievale, Leuven, Belgium, 1995, p217.
- ¹⁵- ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 230، 232.
- ¹⁶- ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 90.
- ¹⁷- بلارة: هي بنت تميم بن المعز بن باديس، كان مولدها بالمهدية، ولما شَبَّت وتكامل تهذيبها وحسن تأديبها، زوجها والدها لابن عمها الناصر بن علناس، فأمهرها بثلاثين ألف دينار ذهباً، فأخذ منه تميم ديناراً واحداً وردّ الباقي، وفي سنة 470هـ/1078م، رُقّت الأميرة بلارة إلى الناصر، فحضت عنده بمنزلة عالية، وابتنى لها بالقلعة قصراً اشهر باسمها، وصفه الشاعر الصنهاجي أبو عبد الله محمد بن حماد بعد خرابه قائلاً: وقصر بلارة أودى الزمان به **** فأين ما شاد منها السادة الأول
- انظر: ابن عذارى: البيان، ج 1، ص 300؛ وحسن حسني عبد الوهاب: شهبيرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1934، ص 51، 52.

- ¹⁸ ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 415؛ وابن عذاري: البيان، ج 1، ص 300.
- ¹⁹ ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 306.
- ²⁰ ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 455.
- ²¹ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 230.
- ²² يحيى بن العزيز (515-547هـ/1121-1152م): هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس، طالت سنوات حكمه حيث بلغت اثنتان وثلاثين سنة، تصفه المصادر بأنه كان فاضلاً حليماً، فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة بديع الإشارة، وكان مولعاً بالصيد واللهو، وهو آخر ملوك بني حماد. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 372؛ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 235؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 334.
- ²³ ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 285.
- ²⁴ أبو عبد الله بن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط 1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ، ص 90؛ وممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ط 1، دار عمار للنشر، الأردن، 1998، ص 206.
- ²⁵ ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 285؛ وابن خلدون: نفسه، ج 6، ص 215؛ وابن أبي دينار: المؤنس، ص 90.
- ²⁶ ابن الأثير: نفسه، ج 9، ص 285؛ وأبو محمد عبد الله التجاني: رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص 340.
- ²⁷ عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة في تاريخ الجزائر، ط 2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 162.
- ²⁸ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 217.
- ²⁹ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 230.
- ³⁰ ابن خلدون: نفسه، ج 6، ص 233، 234؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 334.
- ³¹ ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 455.
- ³² موسى هيصام: الجيش الجزائري في العهد الحمادي، منشورات مديرية الثقافة، المدينة، 2008، ص 118.
- ³³ المنصور (481-498هـ/1088-1105م): هو المنصور بن الناصر بن علناس، كان صغيراً عندما ارتقى إلى الحكم سنة 481هـ/1088م، خلفاً لوالده الناصر؛ إذ أن أمه بلارة بنت تميم تزوجت سنة 470هـ/1077م، وقد وصلتته كتب الملوك بالتعزية بأبيه والتهنئة بالملك، منهم يوسف بن تاشفين وجدّه لأمه تميم بن المعز، اقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة، وكان جماعاً مولعاً بالبناء، وتشديد المصانع واتخاذ القصور. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 455؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 232؛ وحسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات، ص 52؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 325.
- ³⁴ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج 1، ص 330؛ Golvin. L: Le Magrib central à L'époque des zirides, arts et métiers graphiques, Paris, 1957, p126.

- ³⁵ - علي بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 143؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 233.
- ³⁶ - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 155؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234؛ والقادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة، ط 1، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص 83؛ وهيصام: المرجع السابق، ص 119.
- ³⁷ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 333.
- ³⁸ - الفتح ابن خاقان: قلند العقيان ومحاسن الأعيان، ط 1، مكتبة المنار، الأردن، 1989، ص 310-311.
- ³⁹ - ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 229.
- ⁴⁰ - السجلات المستنصرية: تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، 1954، ص 44.
- ⁴¹ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج 2، ص 329.
- ⁴² - عويس: المرجع السابق، ص 183.
- ⁴³ - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 155؛ وابن خلدون: العبر، ج 6، ص 234.
- ⁴⁴ - الملي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ج 2، ص 258؛ وعويس: المرجع السابق، ص 188.